حقيقة يجب تأكيدها :

في مصر "لغة" واحدة!

ترى هل مبدأ "التعقيب على التعقيب" أو "الرؤية على الرؤية" إذا جاز التعبير – من المبادئ التي تعمل بمقتضاها صفحة "الفكر الثقافي" ؟ أتصور أن هذا متاح حين يكون الهدف هو البحث عن الحقيقة وتلمس الطريق إلى الصواب.

وقد دفعني إلى التعقيب على تعقيب د. حازم نور الدين (جامعة أسيوط) ثلاثة أمور، أولها: أن مقدمات مقاله لا تؤدي إلى نتائجه ، بل أكاد ألمح تناقضا بينهما ، وثانيها: ضرورة مناقشة معيار أو معايير التفرقة بين اللهجة واللغة ، وثالثها : ما جاء بالمقال بشأن "علم الدلالة" (أو ما أسماه الكاتب بـ "الدلالات") ، وأيضا بشأن "لهجة الفرد" (أو ما أسماه سيادته "اللغوة" ترجمة للمصطلح الإنجليزي IDIOLECT وسوف نتناول هذه الأمور بشيء من الاختصار الذي أرجو ألا يكون مخلا.

أولاً : يقول الكاتب في بداية مقاله – بعد المقدمة – إن معيار التفريق بين اللهجة واللغة هو "مدى قابلية الفهم المتبادل" (ونقترح : "التفاهم المتبادل") وذلك ترجمة للمصطلح الإنجليزي MUTUAL INTELLIGIBILITY ثم يضرب مثلا بأن المتحدثين باللهجة – أو بالأحرى اللهجات – الصعيدية يمكنهم أن يتفاهموا مع المتحدثين باللهجة "المصاروية" (ونقترح : "القاهرية"). ثم يخلص الكاتب إلى أن اللهجات في مصر "تظل داخل نطاق دائرة لغوية واحدة". وإلى هنا نحسب أن الكاتب قد حسم الأمر ، إلا أنه في الفقرة التالية يلقي بظلال من الشك حول النتيجة التي توصل إليها فيصيبنا بالدهشة حين يقول : "ولكن هل نستطيع أن نسمي هذه الدائرة اللغوية بأنها لغة أم ننزل عند الوصف الشائع عنها لدى المتخصصين وغير المتخصصين على حد سواء بأنها لهجة من لهجات العربية الفصحى؟" ! وتزداد دهشتنا حين يدعو إلى أن يكون هذا السؤال "محل درس طويل ونظر عميق وأن يطرقه الباحثون اللغويون بما يفرضه منهج العلم من تجرد واجب من العواطف التي تقيِّد حدود العقل وتحجِّم آفاق الخيال" !! (وكان "أفاق الخيال" الممتدة واللانهائية مطلوبة في

البحث العلمي ، مثلها مثل "العقل".

وأقول : مادام الكاتب قد ارتضى معيار "التفاهم المتبادل" ، ودار مقاله حول إثبات هذا التفاهم ، باستثناء أبناء النوبة (والذين نقول إن المتعلمين منهم يتفاهمون مع غيرهم بإحدى اللهجات العربية المصرية مثلهم مثل أي مواطن في مصر) فقد كان من الطبيعي قبوله لهذه الاختلافات في "الاستخدامات اللغوية" باعتبارها لهجات للغة واحدة. أما الادعاء – أو مجرد التلميح – بأن في مصر عدة لغات وليس عدة لهجات ، فقد كان من الممكن القول به لو أن الكاتب أثبت أن أبناء مصر لا يفهمون بعضهم البعض. ولكن بما أنه لم ينف هذا التفاهم المتبادل ، فإننا نرى أن نتائجه لا تتفق مع مقدماته.

وأحب أن أشير هنا إلى دراسة الأستاذ الدكتور علي عزت التي أجراها على عينة من طلاب من دول عربية مختلفة (وليس من مناطق مختلفة داخل الدولة نفسها) وأثبت بالدليل العلمي والعملي والتسجيلات أن هناك تفاهما متبادلا بين هؤلاء الطلاب.

ثانيا : اقتصرت مناقشة الكاتب للمعايير التي يستند إليها اللغويون للتمييز بين اللغة واللهجة على معيار واحد هو "التفاهم المتبادل" ، دون أن يشير ولو إشارة عابرة إلى وجود معايير أخرى. كما اقتصر تناوله لموضوع اللهجة على اللهجة الجغرافية أو الإقليمية ، دون الإشارة إلى وجود لهجات من أنماط أخرى مثل اللهجة الاجتماعية اختصارا لمصطلح "لهجة الطبقة الاجتماعية" ، أو اللهجة المهنية أو الحرفية.

ونعود إلى معايير التمييز بين اللهجة واللغة. فبالإضافة إلى اشتراط بعض اللغويين مثل دل هايمز DELL HYMES وجود الأصل التاريخي الواحد للاستخدامات اللغوية المختلفة حتى يمكن إطلاق تسمية "اللهجات" عليها (مثلما هو الحال مع اللهجات العربية)، فإن لغويين آخرين مثل ر.هـ. روبنز R. H. ROBINS يقدمون المعايير الثلاثة التالية للهجات:

١- التفاهم المتبادل.

٢- الصيغ الكلامية SPEECH FORMS المستخدمة داخل منطقة موحدة سياسيا.

٣- الصيغ الكلامية الخاصة بمتحدثين يشتركون في نظام كتابي واحد ، ولديهم مجموعة

مشتركة من الأعمال الكلاسيكية المكتوبة.

وبمقتضى المعيار الأول فإن الأنماط المختلفة من الإنجليزية التي يتحدث بها الناس في بريطانيا هي لهجات للغة الإنجليزية. أما الويلزية WELSH فهي لغة مختلفة.

وبمقتضى المعيار الثاني فإن الأنماط المختلفة التي يتحدث بها الناس على كلا جانبي الحدود الهولندية – الألمانية توصف أحيانا بأنها لهجات للهولندية في هولندا ، وبأنها لهجات للألمانية في ألمانيا ، وذلك بالرغم من أنها تتشابه في نواح كثيرة ، بل وهناك "تفاهم متبادل" بين المتحدثين بها. ويحدث شيء مشابه في الدول الاسكندنافية ، حيث تتسبب التقسيمات السياسية في اعتبار لهجات اللغة نفسها لغات قائمة بذاتها.

وبمقتضى المعيار الثالث ، فإن اللغات المختلفة التي يتحدث بها الناس في الصين ويتحدث بها الصينيون خارجها (كما في فرموزا أو تايوان على سبيل المثال) جرى العرف على تسميتها لهجات ، وذلك بالرغم من أن الصينية التي يتحدث بها الناس في شمال الصين ، وواحدة من "الألسن" الصينية الجنوبية ينعدم التفاهم المتبادل بين المتحدثين بهما.

وإذا ما طبقنا المعايير الثلاثة السابق ذكرها على الصيغ الكلامية في مصر، نجد أنها تتميز بالفهم المتبادل ، وأنها مستخدمة في دولة موحدة سياسيا ، وأنها تشترك في نظام كتابي واحد ، وفي القرآن الكريم والتراث العربي ، علاوة على وجود الأصل التاريخي الواحد لها، وهو العربية الفصحى.

ثالثا : ذكر الكاتب أن هناك فروقا في "مجال الدلالات" بين أهل سرس الليان وأهل كفر شبرا ، ويضرب مثلا على ذلك باختلاف الاسمين اللذين يطلقونهما على القناة الرئيسية في "الغيط" إذ يسميها الفريق الأول "التركيب" بينما يسميها الفريق الثاني "قناة" (ولم يوضح لنا كيف تنطق هذه الكلمة). وأقول إن هذا المثال ، والمثالين الآخرين اللذين تفضل بذكرهما لا علاقة لهما من قريب أو بعيد بعلم الدلالة SEMANTICS بل هي فروق تدخل في إطار المفردات LEXICAL ITEMS أما علم الدلالة فيختص بدراسة العلاقة بين الرمز اللغوي ومعناه ، ويدرس تطور معاني الكلمات تاريخيا ، وتنوع المعاني، والمجاز اللغوي ، والعلاقات بين كلمات اللغة.

أما فيما يتعلق بالجزء الخاص بما أسماه الكاتب "اللغـوة" أو بـالأحرى "لهجـة الفـرد" – فقد عزا الكاتب السر في أننا نعرف أصدقاءنا على التليفون قبل أن ينطقوا بأسمـائهم إلى هذه "اللغوة". وأقول إن السر يكمن فيما يسميه علماء اللغة "الخاصية الـصوتية" VOICE QUALITY وتفسير ذلك أن ما ينطق به الشخص قبل اسمه هو مجرد تحيـة مثـل "صـباح الخير" أو مساء الخير" أو "السلام عليكم" أو ما أشبه" وكلها استخدامات عامة وعادية لا تميز شخصا عن آخر ، إلا إذا كان شخص ما قد دأب على أن يقول شيئا ينفرد به عـن غـيره فحينئذ تعرفه من هذا الاستخدام الذي يدخل في نطاق اللهجة الفردية في هذه الحالة.

صفحة «الفكر الثقافي»

(١٩٩٠/٩/٧)